آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية
السنة السابعة عشرة، العدد الأوّل، ربيع و صيف ١٤٣٥ هـ .ق، صص ٥١ – ٧٤

ميزات المدينة الفاضلة عند جميل صِدقي الزّهاوي

حامد صدقي*

حسين جوكار**

الملخص

لكل شاعرٍ فلسفي مدينة فاضلة. كان جميل صدقي الزّهاوي شاعراً فلسفياً، يقوم بتحليل المظاهر الوجوديّة تحليلاً فلسفيّاً، هو أسهم إسهاماً شديداً في إيقاظ الأمّة، وتحريك الضّمائر، وخلق الحاجة في النفوس إلى حياةٍ أفضل، يريدُ بأشعاره نشرَ بعض القيم الإنسانيَّة في المجتمع، لهذا قامَ في حياته بوضع أساس مدينةٍ فاضلةٍ خاصةٍ به، هناك ميزاتٌ رئيسةٌ للمدينة الفاضلة الزّهاويّة وهي العلم والتّعلم، وإستقلال الوطن، وحريَّة التّعبير، والعدالة، والحثّ على التّقدّم وإرادة الحياة، والإهتمام بشأن المرأة في المجتمع.

قد اعتمدنا في كتابة هذه الدّراسة المنهج التّوصيفي والتّحليلي، وتهدف الدّراسة الحاليّة إلى تحقيق الأهداف التّالية:

ـ تقديم نبذةٍ موجزةٍ عن نشأة فكرة المدينة الفاضلة عند الفلاسفة؛

ـ معرفة شعر الزّهاوي وصلته بالعلم والفلسفة؛

ـ تحديد أهم الميزات الرّئيسة لأهل المدينة الفاضلة في أشعار الزّهاوي؛

ـ تحديد كيفية الحصول على هذه الميزات وفقاً لأشعار الزّهاوي.

المفردات الرّئيسة: الشّعر الحديث، الأدب العراقي، المدينة الفاضلة، جميل صدقي الزّهاوي.

---

* أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الخوارزمي، طهران

** ماجستير في اللغة العربية وآدابها في جامعة الخوارزمي، طهران (الكاتب المسؤول) Hossein.jowkar@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٢/١٥، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٣/٢٧

١. المقدمة

هو«شاعر العراق» جميل صدقي بن محمد فيضي الزّهاوي، وُلد في بغداد، ونشأ في بيت علمٍ ووجاهةٍ (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤١١). وساهم في تحرير جريدة «الزّوراء» ثم أُنتخب عضواً في محكمة الإستئناف، وعُيّن أستاذاً للفلسفة العربيّة في المكتب الملكي بالأستانة، ومدرّساً للعربية في دارالفنون. وأُنتخب عضواً في المجلس النّيابي العثماني. وكان مولده ووفاته ببغداد (مهنّا وخريس، ١٩٩٠: ٦٥). الزّهاوي شاعرٌ أحبّ الفلسفة فدَرَسها ودَرَّسها وولع بها ولعاً شديداً. كان ميّالاً إلى تحليل المظاهر الوجوديّة تحليلاً فلسفيّاً، أي هو رجلٌ ينظر إلى الأمور بنظرةٍ فلسفيةٍ. وإنّ من يستقرأ شعرَ الزهاوي يقفُ على الكثير من مقوّمات شخصيته، لأنّ شعرَه صورةٌ لنفسه وشتى نزعاتها، وهو رجلٌ لايجهرُ إلّا بما يشعرُ:

إنّي امرُؤٌ لَا أَجهَرُ إلّا بِما أنا أَشعُرُ

(الزهاوي، ١٩٨٣: ٢٢)

كان الزّهاوي من جملة المناضلين في سبيل الرقّي والتحرّر والسّير في طريق العلم بحثاً عن القيم الإنسانية. حاول كثيراً لإصلاح الأحوال الفكريّة والتّصرفات الإجتماعيّة عند النّاس لترويض الفكر والدّفاع عن الإنسان الذي كان مثالاً من الله، فعالج أموراً عدة منها، العدل والظّلم، والعلم والتعلّم، والطّبقيّة والمساواة، وحريّة الفكر والتّعصّب، وإحياء القيم الإنسانيّة. كان أسلوب الزهاوي هو التّوجه إلى الشّعب وإلى حكّامه داعياً إلى العلم، والتّحرّر من القيود، والسّير في طريق الحضارة العالمية الجديدة، ومحاربة العادات البالية والتقاليد الموروثة التي قضت على العزائم، وحالت دون التقدّم وفضح الواقع المظلم، ورواية قصص الظلم و المظلومين، ونفث نار الثّورة في عروق الشّعب، منادياً ومحرِّضاً ومُنَبِّهاً ومُرشِداً. وقد أسهمَ إسهاماً شديداً في إيقاظ الأمة، وتحريك الضّمائر، وخلق الحاجة في النفوس إلى حياةٍ أفضل، ولهذا بعد تَبَرُّمه من المجتمع الإنساني والتّقاليد البالية، فتَّش عن الحياة المثالية في الفكر. تأمّلَ في نفسه، وبنى لها مدينةً فاضلةً على أساس الحُرّية والكرامة والصّدق وسائر القيم الإنسانيّة التي كان يتخيّل بثّها في المجتمع.

و المقصود من كتابة هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة التّالية:

١. ما هي ميزات المدينة الفاضلة في أشعار الزهاوي؟

٢. ما هي العوامل التي تؤدي إلى الحصول على هذه الميزات؟

٢. فكرة المدينة الفاضلة ونشأتها عند الفلاسفة

يتميّز الفكر الفلسفي والسياسي اليوناني بقدرٍ كبيرٍ من الثّراء والتّنوع، يجعله من أهمّ المصادر التي ألهمت الكتّاب اليوتوبيين طوال العصور. وأفلاطون نفسه، الذي اتّجه إليه الكتّاب المتأخّرون في معظم الأحوال، قد ترك وراءه أعمالاً تتضمّن أشكالاً مختلفةً من الفكر اليوتوبي (برنيري، ١٩٩٧: ٢٥). وممّا يتّصل بفكرة المدينة الفاضلة الأفلاطونيّة فهو مستنبط من كتابه المعروف بـ«الجمهوريّة»، حيث شرح من خلال حوارات رائعة ما يجب على الدولة والناس القيام به، لتحقُّق العدالة والمساواة بين أبناء البشر. فالقصد من المدينة الفاضلةِ utopia هي المدينة التي يسود فيها العقل، لا الرّغبات والشّهوات، وتكون مبنيةً على العدل والمساواة.

قد بنى أفلاطون جمهوريته المثاليّة على أنّ المجتمع البشري لا يفلح إلّا و يأخذ أفاضلُ الفلاسفة زمام الحكومة بأيديهم ويدبّرون أمور الناس بعلمهم و حصافتهم (مور، ١٣٧١: ٩٦). وإنّ أفلاطون أوّل من توجّه إلى وضع أسُسٍ لمجتمعٍ مثاليٍ أشار إليه بشكل غير مباشر في كتابه المعروف بـ *الجمهوريّة* من خلال حوارات رائعة يتحدّث فيها عمّا ينبغي على الدّولة والشّعب أن يتزيّنا به. غاية بحث أفلاطون في هذه المحاورات هو تحديد صورة الدولة المثاليّة التي تتحقّق فيها العدالة (مطر، ١٩٩٤: ١٢).

بيد أنّ توماس مور الإنكليزي احتذى حذوه وطرح فكرة إنشاء مجتمع مثاليّ في كتابه المسمّى بـ *المدينة الفاضلة أو يوتوبيا*. كان توماس مور (١٤٧٨ – ١٥٣٥) هو أوّل من صاغ كلمة يوتوبيا أو«أوتوبيا» في نطقها اليوناني. وقد اشتقّها من الكلمتين اليونانيتين ou بمعنى (لا) و topos بمعنى مكان، وتعني الكلمة في مجموعها «ليس في مكان»، ولكنه

أسقط حرف o و كتب الكلمة باللاتينية لتصبح Utopia، ووضعها عنواناً لكتابٍ له هو أشهر يوتوبيا في العصر الحديث (برنيري، ١٩٩٧: ٧).

تأثر علماء الشرق بالجمهوريّة على غرار ما وقع في الغرب حيث ألّف المعلّم الثاني[١] كتاباً شهيراً سمّاه المدينة الفاضلة. فهو يرى أنّ تطبيق الأحكام الإسلاميّة بين الناس يؤدي إلى تكوين مجتمع مثالي. وقصد الفارابي من كتابه هذا إلى تكوين مجتمعٍ فاضلٍ (يوتوبيا (Utopia)) من نوع المجتمعات التي فكّر فيها من قبله طائفةٌ من فلاسفة اليونان. وقد أراد مثلهم أن ينشئ مدينةً وفقاً للمبادئ الرّئيسة التي تقوم عليها فلسفته وآراءه في السّعادة والأخلاق والكون وخالقه وما وراء الطبيعة (وافي، د.ت: ٢١). وهنا نودّ الإشارة إلى بعض وجوه الإشتراك والإفتراق بين آراء أفلاطون والفارابي، من جهة، وآراء الزهاوي من جهة أخرى ـ كما يلي ـ: يعتقد افلاطون والفارابي أنّ تحقق المثل الإنسانيّة كالعدالة والمساواة والأخلاق الحسنة بين أبناء البشر يؤدي إلى تكوين المدينة الفاضلة ويعتبرانها المدينةَ التي يسودُ فيها العقل، كما حاول الزهاوي كثيراً لإحياء القيم الإنسانية كالعدل والعلم والمساواة وحريّة التّعبير في المجتمع. وذهب إلى أنّ نشرَ هذه الميزات يؤدي إلى إقامة صرح المدينة الفاضلة. وأما هناك ففرق بارز بين آراء الفيلسوفين والزهاوي: وهو أنّ الزهاوي يشير في تكوين المدينة الفاضلة بشكلٍ مباشرٍ إلى ظاهرةٍ، وهي قوة العزم والإرادة. وهو يصرّح في أشعاره ـ كمايلي ـ إلى أنَّ مصير الشعب بأيديهم وتكوين المدينة الفاضلة رهن إرادتهم، بينما لانجد مثل هذا القول عند أفلاطون والفارابي؛ أي أنهما لم يهتمّا بتدخّل الإنسان في مصيره وتأثيره في تكوين مدينته الفاضلة بقدر ما اهتمّ به الزّهاوي.

٣. الدّراسات السّابقة

هناك بحوثٌ مختلفةٌ حول جميل صدقي الزهاوي وأشعاره، منها؛ مقالات بعنوان: «مكافحة الاستعمار في أشعار ملك الشعراء بهار وجميل صدقي الزهاوي»، التي طبعت في مجلة *لسان*

مبين لمحمّد صادق بصيري؛ و«نقد التناص القرآني في قصيدة ثورة في الجحيم لجميل صدقي الزهاوي»، التي طبعت في مجلة *النقد والأدب المقارن*، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي ــ كرمانشاه لجهانگير أميري؛ و«الخسارات الإجتماعية من منظار جميل صدقي الزهاوي»، التي طبعت في مجلة *نقد الأدب المعاصر العربي* حسين ناظري، وكذلك رسالات بعنوان: «دراسة معنى ومفهوم العلم والجهل في أشعار جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي»، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة فردوسي مشهد لمعصومة محمود آبادي؛ و«جميل صدقي الزهاوي ومكانته في الشعر العربي المعاصر»، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة تربيت مدرس لصبري جليليان؛ و«الدراسة والمقارنة للمضامين الإجتماعية بين الشاعرين الإيراني والعراقي: ملك الشعراء بهار وجميل صدقي الزهاوي»، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة يزد لهدية قاسمي فرد؛ وأيضاً كتب بعنوان: «الزهاوي الشاعر»، لإسماعيل أحمد أدهم، و«الزهاوي شاعر الحرية»، لأنور الجندي، و«الزهاوي وديوانه المفقود»، لهلال ناجي.

ومماسبق يتضح أنّ الدراسة الحالية مكملة لبعض الجزئيات المهملة التي لم يتم تغطيتها في الدراسات السابقة، لأنّ هذه المقالة تمتاز عن البحوث التي سبقتها بشرح الدوافع التي أدّت إلى إنشاد أشعاره، لأن البحوث السابقة قد تناولت أشعاره من حيث بيان المعنى والمفهوم لكلّ بيت وشرحه، وأما هذه المقالة علاوة على ذلك، فتتناول دوافع الزهاوي لإنشاد أشعاره في إطار ميزات مدوّنته الفاضلة.

٤. شعرُالزّهاوي وعلاقته بالعلم والفلسفة

للناسِ في الزّهاوي مواقف متباينةٌ، فمنهم من يطري عليه الشاعر ويُعلي شأنَ عبقريَّته، ومنهم من يطري عليه الفيلسوف وينكرُ عليه الشعر أو يحطّ من شأن شعره. هو أنَّ الزهاوي شاعرٌ غلبت على شعره نزعةُ التفكير العلمي، وكان أسلوبُه فيه أسلوب التحليل والتعليل (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤١٥). يمتاز الزهاوي بوفرة الإنتاج والسرعة فيه من

جهةٍ، والإعتناء ببعض شعره من جهةٍ أخرى. ولأجل ذلك تفاوتت قصائده في الجودة (الفاخوري، ١٣٨٥: ١٠١٥). يقول أنور الجندي: «الزهاوي جرى مجرى القدماء في المدح والرثاء والهجاء. وهو في هذا مجدِّدٌ بالمعاني مقلِّدٌ بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم» (الجندي، ١٩٦٠: ٥١).

حاول الزهاوي أن يكونَ إبنَ الحياة الجديدة، فحاول أن يجدِّدَ في موضوع شعره، وكان تجديده في صراعه التّحريري، وفي جعل العلم والفلسفة موضوعاً للشعر (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤٣٢).

إنّ الفكرة الفلسفيّة هي المادة الأصلية في شعر الزّهاوي، يقولُ إسماعيل أحمد أدهم: «إنَّ شاعريّةَ الزهاوي كامنةٌ في شعره الفلسفي ويجب أن نبحثَ عنها فيه، حيث بلغَ فيه القمةَ وشارك فيلسوف المعرَّة أبا العلاء عرشَه في الجلوس على قمة الشعر العربي الفلسفي» (أدهم، ١٩٣٧: ٣٦). لقد كان الزهاوي يعتقدُ أنَّ وظيفةَ الشعر وظيفةٌ ثقافيةٌ وخُلقِيَّةٌ، كما يقول:

حبذا الشعرُ إذا كان مُثيراً للشعُور
وإذا كان نزيهاً كأغَارِيد الطُّيور

(الزهاوي، ١٩٢٤: مقدمة، ألف)

لأنّ الشعرَ في نظره هو تعبيرٌ صادقٌ عن الشعور لا تقليدٌ لما قاله الأقدمون ولاجري على عمود الشعر الذي كان من أشدّ الأمور تقييداً للقرائح؛ أيضاً يعتقدُ أنّ أحسنَ الشِّعر ما إستندَ إلى الحقائق أكثر من العواطف والخيال البعيدين عنها فكانت حصةُ العقل فيه أكثر من حصتهما (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤٢٠-٤٢١).

وأيضاً يعتقد أنَّ من وظائف الشعر، إصلاحَ الأحوال الفكريّة والتصرفات الإجتماعيّة عند الناس وفي هذا يلتقي مع أفلاطون (في الجمهوريَّة) ومع *القرآن الكريم*، كما يقول:

يُمارِسُ شِعري اليوم إصلاحَ أُمةٍ فللّهِ شِعري اليوم ماذَا يُمَارِسُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٨٥)

٥. ميزات أهل المدينة الفاضلة في أشعار الزهاوي

١.٥ العلمُ والتَّعلُّم

العلم من المقومات الأساسية في أدب الزهاوي، وهو الأساس الأول الذي بُنِيَ عليه أدب الزهاوي ومدينته الفاضلة. هذه الميزة هي التي سببت أن يظهر أدب الزهاوي بما ناله في أرجاء العالم من التقدير والإعجاب والإقبال الشّديد إليه. الحقيقة التي عُني الزهاوي بالتعبير عنها هي العلمُ، منهجاً وكشفاً. وعناية الزهاوي بالعلم وحقائقه لا تنبعُ من مجرّد موقفٍ عقليّ، ذهنيّ؛ وإنّما تنبعُ من كيانه الحيّ من جسده ومشاعره وتخيلاته. ومن هنا يمكن وصفُ حقائق العلم الموضوعيّة، بأنّها للزّهاوي حقائق ذاتيّة، أي داخلة في قناعاته الأخيرة، متداخلة في عواطفه وإحساساته وإنفعالاته (الزهاوي، ١٩٨٣: ٥). العلم في نظر الزهاوي هو سبيل النجاح، فلاحياة إجتماعيّة مزدهرة في ظلّ الجهل والأوهام، ولاحياة سعيدة مع التعامي والتخلُّف والإحجام (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤٢٥). والعلمُ في رأيه هو سبب تفوّق الناس على الآخرين، أي جعلَ العلمَ أحدَ موازين التّفاضل بين الناس، كمايقول تعالى «قُل هَل يَستوِي الذين يَعلَمُونَ وَالَّذينَ لا يَعلَمُونَ» (الزُّمر: ٩). لهذا غلبت على شعره نزعة التفكير العلمي و على أسلوبه نزعة التّحليل والتعليل. هو يعتقد أنّ توفيقَ الشخص في كلّ شؤون حياته يعود إلى التعلّم، وبالعلم يستطيعُ المرءُ أن يميِّزَ الجيّدَ من الرّديء في العصر الحديث في مجال الأدب، والعلوم، والتجارة، والمكاسب، وشتّى مراحل الحياة، ويصلَ إلى الكمال. ووفقاً لهذا، فالعمود الرئيس لإقامة المدينة الفاضلة وإصلاح المجتمع عند الزهاوي ليس السيف وقوة الحاكم بل هو العلم والتعلم؛ قائلاً:

يَاعِلمُ إنَّكَ ذوُحَولٍ فَخُذ بِيَدي ... عِندَ البَرَازِ إذَا زَلّت بِيَ القَدمُ
يَاقَومُ بِالعِلمِ لُوذُوا فِي شَدَائِدِكُم ... فَالعِلمُ يَعصِمُ مَن بِالعِلمِ يَعتَصِمُ
تَفَاوَتَ العِلمُ وَالجَهلُ القَسِيمُ لَه ... كَما تَفَاوَتَتِ الأَنوَارُ وَ الظُّلَمُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ١٩٥)

العِلمُ نُورٌ بَـينَ أَيدِي المَرءِ فِي كُـلِّ المَطَالِـب
فِي العِلمِ تَوسِيعٌ لِأبوَابِ التّجَارَة وَ المَكَاسِـب
فِي العِلمِ إصلَاحُ المَفَاسِدِ وَ العَقَائِدِ وَ المَـذَاهِب
لَيسَ الحَيَاةُ سِوى وَغى وَالنَّاسُ مَغلُوبٌ وَغَالب
وَ العِلمُ فِي هَذَا الجهَادِ هُوَالسّلاحُ لِمَن يُحَارِب

(المصدر نفسه: ٢٢٥)

يعتقد الزهاوي، أنّ العصرَ هو عصرُ العلم، والشرق كان قديماً منارة العالم في العلـوم المختلفة، فما باله يتخبّط في أوهامه اليوم، وما باله ينظر إلى الغرب، الذي بلغ مـا بلـغ بالعلم، نظرة الذّليل الذي لايستطيع الحركة، والعقيم الذي كاد عقلُه يتوقّف عن التفكير؛ هو يعاني من هذا التخبّط، فيهتفُ لماذا الغرب الذي كان يقلّـدنا، ينظـرُ إلينـا نظـرة إستخفاف وقد تطورت علومهم وقدسبقنا في مجال العلم، إذ يقولُ:

العِلمُ لَاحَ لِأهلِ الغَربِ فِيـه سَـنى العِـلمُ قَـدَّمَهُم و الجَهلُ أخَّرَنـا
بالعِلمِ نَالُوا مِنَ الأَيَّـامِ كُـلَّ مُنـى بِالعِلمِ قَـد فَـهِمُوا أنَّ الحياةَ وَغَى

(المصدر نفسه: ٢٣٨)

كما يعتقد الزهاوي أنّ شعوب الغرب إستطاعت أن تصلَ إلى التطور في شتّى مجالات بواسطة العلم، وأما كل قوم إبتلى بالجهل فليس له علاج من هذا الـداء، ويعتقـد كـل شخص يستعين بالعلم ينجح دون أيّ قتال والعلمُ أفضل آلات الحرب في الحياة. ويؤكـد على إستخدام العلم ونشره، لأنه سبب الفوز، قائلاً:

بِالعِلمِ قَد مَلَكت شُعُوبُ الغربِ نَاصِيَةَ المَعالِي
مَا إن أَرَى كَالجَهلِ فِي الأَقوَامِ مِن دَاءٍ عُضَالِ
مَن يَـستَعِن بِالعِلمِ يَفتَتِح الـبلادَ بِلاقِتَـالِ
العِلمُ فِي حَربِ الحَياةِ يُعدّ مِن أَمضى النِّصـالِ
إلْبَس سلاحَ العِلمِ ثمَّ ادعُ الخُصُومَ إلى النِّـزالِ
حَكَمَ الزَّمانُ عَلى رُؤوسٍ ليسَ تَعَلَّمُ، بالزَّوالِ

(الزهاوي، ١٩٨٣: ٧٤)

كان الزهاوي ينظرُ إلى العلم كفريضةٍ، ويُوجب على كلّ شخصٍ أن يتحلى بها، ولهذا يصف النتائج التي تُحصل عبر العلم، ويزيّن مصيرَ كل شخصٍ يهتمّ بالعلم وأيضاً يذكرهم أنّ العلمَ يكتسب بالتعلم والتجارب، ويفزعهم من الجهل لأنه من أخزى المعايب، قائلاً:

يـــَا قومُ إنَّ العِلمَ بِالاجماعِ مَحمُودُ العَواقِـــب
يَا قومُ إنَّ العِلمَ يُحصَلُ بـــالتَّعَلُّم وَ التَّجَـــارب
يـــَاقومُ إنَّ الجهلَ فِي ذَاالعَصرِمِن أخزَى المَعايب
يـــَا قـــومُ إنَّ العِلمَ ثُمَّ العِلم ثُمَّ العِلم وَاجِـــب

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٢٦)

كما نجد روايةً عن النبي الأكرم (ص) في وجوب العلم: «طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ، أَلَا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ بُغَاةَ العِلمِ» (الكليني الرازي، د.ت: ١/ ٣٥).

وهكذا حاول الزهاوي الإدلاء ـ برأيه ـ في مجال العلم وأنشد أشعاره لإستثارة ضمائر الناس وإيقاظ الأذهان لأنه إعتقد أنّ أوّل شيء يؤدي إلى الرقّي هو التعلم لذلك لم يـــأل جهدَه فيه، وإتّجه إلى الشّعب وإلى حكّامه داعياً إلى العِلم والسّير في طريـــق الحضـــارةِ العالمية الجديدة.

٢.٥ إستقلالُ الوطن

الوطن في اللغة العربية كماجاء في لسان العرب: «هو المنـــزلُ الذي يُمثّلُ مَوطنَ الإنسان ومحلَّه، ووَطَنَ بالمكان وأوطَنَ أي أقامَ مُتَّخَذاً إيَّاه محلاً وسكناً يقيمُ فيه» (إبـــن منظـــور، ١٩٩٨: مادة وطن). فالوطن هنا، المكان الذي يرتبط به الإنسان فهو مســـقط رأســـه ومستقر حياته، وسكنه روحاً وجسداً، ويهيم به حباً وحنيناً، فحُبّ الوطن والإلتصاق به وحُبُّ البقاء فيه من الأمور الفطرية لدى الإنسان، إذ جاءَ في *القرآن الكريم*: «أُذِنَ لِلَّـــذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ أَلَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِحَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ» (الحج: ٣٩ – ٤٠). *والقرآنُ* هنا يعطي صورة الوطن وقالَ فإخراج الإنسان من دياره ـ التي هي وطنه ـ يعدّ ظلماً يوجبُ على الإنسان القتال وبذل النفس لرفع هـــذا

الظلم، لكي يعيشَ آمناً في وطنه. وحُبُّ الوطن قضيَّةٌ فطريةٌ متأصلةٌ في نفس الإنسان، والشعر الوطني هو الشعر الذي يتغّنى الشعراء فيه بأمجاد وطنهم. ويدعون فيه إلى إستقلال الوطن وتحريره من نير الظلم والإستبداد؛ كما جاء «فالوطنيّةُ تَشمل أناشيدَ الحماسة، وتصوير الفضائع التي إرتكبها الغاصب والمناداة بالاستقلال، والتحرر من ربقة الأجنبي، والحثّ على الثورة، وتصوير الصدام بين جنود الإحتلال والوطنيين المجاهدين» (الدسوقي، ٢٠٠٣: ٢/ ٢٩٦). واُتُّهِمَ الزهاوي في عاطفته الوطنيَّة وكان هذا الإتهام تحامل عليه لأنَّه مِن أخلص مَن ناضَلَ في سبيلِ شعبه والشّعوب العربيَّة (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤١٠).

كان الزّهاوي من أشدّ الناسِ حبّاً لوطنه، يريدُ له الخيرَ، ولكنّه عندما رأى عبث العثمانيّين بالبلاد، وإستبداد حكّامهم برقاب العباد، وحسبَ أنَّ الثورة سوفَ تكونُ وبالاً، والإنكليز سيحتلون البلاد، خاطَبَ وطنَهُ قائلاً:

طَعَنوكَ يَا وَطَني المُفَدَّى ... فِي الصَّدرِ، حَتَّى كدتَ تَردَى
وَ الطَّاعِنُونَ بَنُوكَ، أَنتَ ... كسوْتَهُم لَحماً و جِلدَا

(الزهاوي، ١٩٨٣: ٩٦)

و أيضاً يخاطبُ أبناءَ شعبه ويفزِعُهم مِن مَذَلَّةِ الحياةِ ويثيرُهم على التَّحَرُّرِ وَالدِّفَاع عَن بلادِهم، ويذكرهم بأن هناك شعب يريد العداوة عليكم، لهذا يجب أن تدافعوا عن حياض بلادكم. وهو يقول أنتم تُقتلون في هذا السّبيل ولكن فِكرُ التّحرر لايُقتل وأيضاً يعتقد كلّ من يقبل الخزيَ والعارَ ولاينتفض على الظلم، إنّ موته أفضل له وللجميع، قائلاً:

هنالك شَعبٌ يريدُ العدي ... هَوانًا لَه وَ هُوَ لَا يَقبَلُ
وَ قَد تُقتَلُ النَّفسُ في ذودِهَا ... وَ فِكرُ التّحَرُّر لَا يُقَتَّلُ
فَذَاكَ لِآمَالِها آخرٌ ... وَ ذَاك لِآمَالِها أَوّلُ
إذَا حُرمت مَاءَ أجدَادِها ... فَلا طَابَ مِن بَعدِهَا المَنهَلُ
وَ قَد يَدفَعُ الشَّعبُ عَن حَوضِهِ ... دِفَاعَ الكَمِيِّ وَ يَستَقتِلُ
ومَن سِيمَ خِسفاً وَ لَم يَنتَفِض ... فَإنَّ مَنِيَّتَهُ أَفضَلُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٠٤)

وبعد إحتلال البلاد بيد الأجانب وعندما تعامى الناسُ عن النضال الطويل الذي قام به الزهاوي، وعن تعرّضه لغضب الأتراك، وسعيه المتواصل في سبيل إنهاض الشعب، يثير الناسَ ويسوقهم إلى الإستقلال ويذكرهم بأن ليس الحياة التي تُبنى على العزة مثل الحياة التي تُبنى على الذلة، ولهذا يثيرهم للهجوم على المستعمرين في بلاده، ويقول إذا فقدتُ حرية بلادنا فهذا أكبر مصائب وأما إن هلكتُ في هذا السبيل فلا بأس، لأنّ كثيرين ماتوا قبلي في الوصول إلى الحرية والإستقلال في بلادي، قائلاً:

يَا أَيدِي الظُّلمِ شُلِّي ... وَ يَا بِلادُ إِستَقِلِّي
وَ يَا رَجَاءُ تَعَزَّز ... وَ يَا مَصَائِبُ ذُلِّي
وَ أَنتَ يَا رَايَةَ النُّصرَةِ ... اخفقِي وَ اظلِّي
يَا أَرضَ أَهلِي وَمَالِي ... فِداكِ مَالِي وَ أَهلِي
لَيسَ الحَيَاةُ بِعِزٍّ ... مِثلَ الحَيَاةِ بِذُلِّ
إِذَا فَقَدتُ بِلَادِي ... فَذَاكَ أَكبَرُ ثُكلِي
وإِن هَلَكتُ فَكَم مِن ... ذِي حَاجَةٍ مَاتَ قَبلِي

(المصدر نفسه: ٢٩٥)

و قَدآلَمَه إنحراف أبناء وطنه عنه، وما وُجِّهَ إليه مِن نقدٍ وتجريح، فراوَدَته فكرةُ هجر العراق، إذ سافَرَ إلى مصر، ولكنَّ غيابَهُ لَم يَطُل، وعندما عادَ إلى وَطَنِه راح يُواصِلُ عملَه الإصلاحي، داعياً إلى الوعي والعلم والعدالة والأمل للمستقبل إذ يُهَدِّدُ الغَربَ، قائلاً:

سَتَرَقَّى بِلَادُ الشَّرقِ بَعدَ إِنحِطَاطِهَا ... لَو أَنَّ بَنِيهَا إِستَيقَظُوا وَ تَعَلَّمُوا
يَزُولُ تَمَامَاً مَابِهَا مِن تَأَخُّر ... لَو أَنَّ حُكُومَاتِ البِلَادِ تُنَظَّمُ
هُنَالِكَ يَحيَا المجدُ مِن بَعدِ مَوتِه ... هُنَالِكَ يَبنِي العِلمُ مَا الجَهلُ يَهدِمُ
فَتَمنَحَهَا عَن طيب نَفس مَجَالِساً ... نِيَابِيَّةً فِيهَا العَدَالَةُ تَحكُمُ
لَقَد طَالَ صَبرُ الشَّرقِ يَاغَربُ فَازدَجِر ... فَإِنَّكَ إِن لَم تَزدَجِر سَوفَ تَندِمُ

(المصدر نفسه: ٢٩٣)

وهكذا لم يغفل الزهاوي عن وطنه الكبير، فقد منحه الكثير من نفسه ومن شعره، وتغنى بأمجاده، وأهابَ به أن يعودَ إلى ماضي رقّيه، فيتحرّر من القيود التي تكبّله، ويُقبل على العلم، وينشر في كل مكان من أرجائه لواءَ العدل والمساواة والحريَّة وسائر القيم التي كان يعتبرها من ميزات مدينته الفاضلة.

٣.٥ حُريَّةُ التَّعبير

كان الزهاوي شغوفاً بالحرية إلى حدٍّ بعيد، و يطالب بإطلاقها إلى الحد القصيّ، أي يبحث عن حريّة التّفكير، وحريّة التّعبير، وحريّة القول، وحريّة النّشر في شعره. كل ذلك يريده ويطالب به، ولايزعجه إلا حرية واحدة وهي حرية الذين يخالفونه في بعض ما يذهب إليه، ولاسيما الذين يسميهم بالرّجعيين أو الجامدين، فإنَّه يرغب في كبح كلمتهم وإسكات نهضتهم (ناجي، د.ت: ٢٩). إذ يعتقدُ أنَّ الواجب على كل إنسانٍ أن يعرب عن آرائه في المجتمع، وله أعلى شأناً ومنزلةً من أن يعامل معه الآخرون معاملة العبد والأَمَة، حيث يقول: «لا أسكت ولن أسكتَ. أنا حرّ في الكلام ومن ذا الذي يستطيع إسكاتي؟ ألا قولوا من يستطيع؟» (ناجي، د.ت: ٤٠). كما يقول الإمام علي (ع): «أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ آدَمَ لَم يَلِد عَبداً و لَا أَمَةً، وَإنَّ النَّاسَ كُلَّهُم أَحرَارٌ» (ري شهري، ١٣٨٤: ١/ ١٠٩٦). لهذا نادى بحرية التعبير وأثار الناسَ على أن يهتفوا بما في قلوبهم، ورأى أنَّ حرية التعبير من الشروط الضروريَّة لرقّي المجتمع، وتطور شؤون الحياة، والحصول على متطلبات الناس، والتقدم في ميدان الحضارة، قائلاً:

عَظِيمٌ عَلى الأَفكارِ في عَصرِنَا الحَجرُ ... أَما كلُّ إنسانٍ آرَائِه حُرُّ
وَ هَل فَقِهَ الشَّعبُ المُرِيدُ انطِلاقَهُ ... منَ الأَسرِ أَنَّ الحَجرَ فِيهِ هوَ الأَسرُ
وَ هَل نَافِعٌ تَحرِيرُهُ مِن أَسَارِهِ ... إِذَا لم يَكُن في رَأسِهِ حرّ الفِكرُ
وَ أَيُّ رُقيٍّ في الحَيَاةِ مُيَسَّرٌ ... لِقومٍ بِقَولِ الحَقِّ مَا إِن لَهُم جَهرُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ١٩٠)

تألم الزّهاوي من الحالة التي تخبّط فيها الشعب العربي وليست بينهم حرية التعبير، وعمل على الإرشاد والهداية، ورأى في الآراء التي أبداها، دواءً للمرض المتأصل في ذهنية ذلك الشعب، قائلاً:

مَاذَا عَليَّ مِنَ الَّذِي قَد قُلتُه ... أَولَستُ حُرَّ الرَّأي وَ التَّفكِيرِ
هَل في مَقالي الحَقُّ في عَهدٍ بِهِ ... قَد أَعلَنَ الدُّستُورُ من مَحظُورِ
يَا قَومُ حَسبِي اللهُ هَل أَنَا مُخطِئٌ ... أم أنتَ بِالدُّستُورِ غَيرُ جَدِيرِ
يَا ظُلمُ إِن طَالَت يَدَيكَ بُرهَةً ... فَالعَدلُ لَيسَ ذَرعُهُ بِقَصِيرِ

(المصدر نفسه: ١٩٢)

وأما حينما رأى فقدان الحرية ـ حريَّة التعبير ـ عند الناس، فتبرَّم وإحتجَّ عليهم وساقهم إلى نقد الأعداء واستذكرهم حريَّةَ التّعبير التي كان موجودةً بينهم في الماضي، قائلاً:

سَاكِتٌ أَنتَ وَ الأَعَادِي تَقُولُ ... وَ مُضِرٌّ بِكَ السُّكُوتُ الطَّوِيلُ
مَضغَتكَ الأَفوَاهُ بِالذَّمِّ وَ الثَّلبِ ... فَلِلّهِ شِلْوُكَ المَأكُولُ
لَا دِفَاعٌ عَمَّا لحوك عَلَيه ... في إِنتِقَادَاتِهِم وَ لَا تَأوِيلُ
أَعيَاءٌ وَ لَيسَ فِيكَ عَيَاءُ ... أَم ذُهُولٌ وَ لَيسَ فِيكَ ذُهُولُ
أَينَ ذَاكَ النِّضَالُ عَن حَرَمِ العِلمِ ... وَ تِلكَ النِّبَالُ و تِلكَ النُّصُولُ
أَينَ ذَاكَ الشِّعرُ الرَّقِيقُ المنقِيّ ... أَينَ ذَاكَ النَّثرُ النَّفِيسُ الجَمِيلُ

(المصدر نفسه: ٢٧٦ – ٢٧٧)

وإنَّ الزهاوي يصرّح أنَّ الحريَّة الحقيقيَّة لاتحصل للبشر في المجتمع الإنساني؛ وفي رأيه، إنَّ الطريق الوحيد لحرية الإنسان هو بناء المدينة الفاضلة والعيش فيها. لهذا بعد أن قَنِطَ من المجتمع، أقبل على مدينته الفاضلة و قال فيها ما ينبغي لِأهل المدينة.

٤.٥ العدالة

جنَّدَ الزهاوي شعره لدعوة الإصلاح الإجتماعي والعدل الذي كان في كلام الإمام علي(ع): «العدلُ يَضعُ الأمورَ مَواضِعَهَا» (*نهج البلاغة*، قصار الحكم: رقم ٤٣٧).

وشعره في هذا الباب متباينٌ بتباين الصورة التي التزمها في عرض فكرتــه إذ هــاجم في شعره الجهلَ والعادات البالية. وقد فزع الزهاوي من التفاوت الطبقي وتألَّمَ لمصــير طبقــة الكادحين، ولكن ما قاله في ذلك مجرد لمحات خاطفة سريعة (ناجي، د.ت: ٢٤٨– ٢٤٩). فهو يهاجم الحكام على أنّهم مغتصبون وظالمون، يأخذون الناسَ بالكذب والوعود العرقوبيَّة؛ إرادهم نافذةٌ لا يحدّها حدٌّ، ولا يقف في وجهها سدٌّ وفي مهاجمته لهم ولأعــوانهم جــرأةٌ وصراحةٌ يطويهما على ألمٍ في النفس عميق وعلى إنتصار للشعب عنيف، حيث يقول:

يَــا غِيرَةَ اللهِ ابطِشِي بِعِصَابَةٍ ... أَلهَاهُمُ الــجَبَرُوتُ وَالطُّغيَانُ
فَــلَقَد أُهِينَ العَدلُ في دِيوَانِهِ، ... وَلَــقَد أُهِينَ العِلمُ وَ العِرفَانُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٨٣)

هو يهيب بالحُكّام أن يعودوا إلى ضمائرهم ويشفقوا على هذا الشعب المسكين، ولكنه لا ينتظر منهم الخير، ويريد منهم العدل، قائلاً:

خَــفِّــف مِنَ الظُّلمِ إبقَاءً وَ تَهوِينَــا ... فَــالظُّلمُ يقتُلُنَــا وَ العَــدلُ يُحيِينَــا
يَا مَالِكَ الأَمرِ إنَّ النّاسَ قَــد ضَــجِرُوا ... عَامِلْ بِــرِفقٍ رَعَــايَاكَ المَسَاكِينَا
لَهَوتَ عَنَّــا بما اوتِيتَ مِــن دِعَــــةٍ ... فَــابيَضَّ لَيــلُــك وَ إسوَدَّت لَيَــالِينَا
لَــيسَت طَرِيقكَ مَحمُــوداً مَغَبَّتُهــا ... فَــأبــدِلْهُ إن شِئتَ في الأَرضِ تَحسِينَا
لقَــد مَلَكْــتَ فَأصــبَحَ أَنَّنَــا فِئَــةٌ ... لاشيءَ غيرُ جَمَالِ العَــدلِ يُرضِــينَا

(المصدر نفسه: ٢٨٥)

ويمضي الزهاوي في مرثيته للعدل، وفي صرختِه المدويَّة في وجه الطغيان، وإذا أنت أمام فسادٍ طَمَا سَيلُه، وهتكٍ للأعراض عمَّ وَيلُه، وإمتصاصٍ للنفوس قتّال، وإجحــافٍ يقطّــع القلوب والأوصال، وإذا الشاعر ينادي العدلَ ويقول:

يَاعَدلُ، إنَّكَ أَنتَ مَحبوبٌ لَنَا، ... حَتّامَ هَــذَا الصَّدُ وَ الهِجرَانُ؟
يَا عَدلُ مُنذُ صَدَدتَ عَنَّا مَا لَنا ... يَاعَدلُ، عَنكَ بِحَــالَةٍ سُلوَانُ

(المصدر نفسه: ٢٨٤)

ثم الزهاوي يخاطبُ العدلَ ويصف سيفَه، ويطلب من العدل أن يحكم بين الظالم والمظلوم بسيفه الصارم، ويطلب منه أن يُعيد إلى بلاده ما فقد من العلم والعرفان والأدب، ويلجأ إلى العدل لرقي وطنه، قائلاً:

يَا عَدلُ سَيفُكَ مَحمُودٌ صَرَامَتُهُ ... فِي حَدِّهِ الجِدَّ بَينَ الجِدِّ وَ اللَّعِبِ
جَرِّدْهُ مِن غِمدِهِ يَا عَدلُ مُقتَدِرًا ... وَاحْكُمْ بِهِ بَينَ مَغصُوبٍ وَمُغتَصِبِ
فَقَد تُعِيدُ إلى بَغدَاد مَا فَقدت ... مِن دَولَةِ العِلمِ وَ العرفَانِ وَ الأَدَبِ

(المصدر نفسه: ٢٧٥)

تجدر الإشارة هنا إلى أن الزهاوي يرى أن العلم سببٌ لتكوين العدل ولكن إنّ العدل هو أول شيء يحتاج الشعب إليه ليفوزَ بما يطلبه، قائلاً:

العِلمُ لِلعَدلِ إن عَمَّمتَهُ سَبَبٌ ... وَالعَدلُ أَوَّلُ مَا فِي أُمَّةٍ يَجِبُ
إِنَّ الأَلى عَدَلُوا فَازُوا بِما طَلَبُوا ... إِنِّي أَوَدُّ كَمَن فِي نَفسِهِ وَطَرُ
لَو أَنَّ بِالعَدلِ كُلُّ النَّاسِ يَأتَمِرُوا

(المصدر نفسه: ٢٣٨)

ثم يتناول الزهاوي العدلَ في مدينته الخيالية، ويشيرُ إلى صورة العدل ويشرحُ جمالياته، وبهذا الطريق حاول أن يصوِّرَه بشكل رائع ومُبيدٍ للظُّلم في المجتمع، حتى يرغب الناس فيه، قائلاً:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ العَدلَ غَانِيَةٌ ... فَتَانَةُ الوَجهِ وَ العَينَينِ وَ اللَّبَبِ
فِي نَحرِهَا مَاسَّةٌ كَالنَّجمِ سَاطِعَةٌ ... وَ فَوقَ مَفرِقِهَا تَاجٌ مِنَ الذَّهَبِ
إِخَالُ لَيلَى ـ وَ لَيلَى العَدل ـ قَد رَضِيَت ... عَنِ المُحِبِّينِ بَعدَ السَّخْطِ وَالغَضَبِ
مَاذَا الَّذِي جعَلَ الحَسنَاءَ تَرحَمُنَا ... لَابُدَّ مِن سَبَبٍ لَابُدَّ مِن سَبَبِ
بِمَا بِعَينَيكِ مِن سِحرٍ وَ مِن دَعَجٍ ... وَ ما بِثغرِكِ من ظُلمٍ وَ مِن شَنَبِ
لَأَنتِ أَحسنُ مَا شَاهَدتُ مِن حَسَنٍ ... وَ أَنتِ أَكبَرُ مَا مُنِّيتُ مِن إِرَبِ

(المصدر نفسه: ٢٧٥)

وفي نهاية هذا المجال نشيرُ إلى أشعارٍ يبثّ الزهاوي الشكوى فيها مطالباً بالعدل، وهو يخاطب العدلَ ويقول له: أيها العدل أنت الذي يغيث كلّ مروّع من الظلم وكل داعٍ إلى

الويل والحرب، وحينما يلجأ كل مظلوم إليك أنت الذي يحميه أمام الظالم، ونحن لانستطيع أن نواصلَ حياتنا بعدك، والحياة لاتحسن لنا بعدك، قائلاً:

يَا عَدلُ مَن لِمُـــرَوَّعٍ بَـــاتَ مُرتَجفَـــا وَ صَارِخٍ قَـــد دَعَا بِالوَيلِ وَ الحَـــربِ
مَن ذَا إِذَا مَا إِســـتَجَارَ الخَائِــفُونَ بِـــهِ يَرُدُّ عَن ذِي حُقوقٍ كَـــفَّ مُغتصِـــبِ
يَـــا عَدلُ هَـــل أَنتَ فِي يَومٍ مُعَـــاوِدُنَا فَبَعدَكَ العَيشُ لَم يَحسُـــن وَلَم يَطُـــبِ

(المصدر نفسه: ٢٩٠)

٦. الحثُّ على التَّقَدُّم وإرادةُ الحياة

السّير إلى التقدم والتطور من المواد الأساسية التي شيّدت صرح الزهاوي الفكري والأدبي. كان يحب التقدم ويرى أنه من العناصر الضرورية لحياة الإنسان، لهذا حارب العادات البالية والتقاليد الموروثة التي قضت على العزائم، وحالت دون التقدم. وحاول أن ينشرَ في شعره المضامين التي تؤدي إلى تحريك الضّمائر للسّير في هذا الطريق، لأنَّه عارفٌ بأنَّ التقـــدم لا يتحقق إلا بأيدي الناس. ومن أجل ذلك سَعى إلى إثارةَ النفوس في المرحلة الأولى، وبعد أن سايره الناس أخذ يشرح لهم سبلَ الوصول إلى التقدم في شتّى المجالات. هـــذه الرؤيـــة في الأدب جعلت الزهاوي يهدف في أشعاره القيم الإنسانية والأخلاقية السامية، وعبَّرَ عـــن الحياةِ والإنسان تعبيراً صادقاً وجميلاً. لأنَّه هو الذي يعشق المدينة الفاضلة، وقد امتلأ قلبـــه بالتجارب العاطفيَّة والمشاعر الجيّاشة للبشَريَّة. اضطلع الزهاوي بمهمته الإنسانيَّة في الحـــث على التّقدم، ووسائله في هذه المهمة الشّاقة هي أشعاره، كما يقول:

أَيُّـــهُا النَّـــاسُ مَـــرَّ وَقتُ المَلاهِي أَيَّهُا النَّـــاسُ إِنَّمَـــا أَنَـــا نَـــاهِي
أَيَّهُا النَّاسُ قَد دَهَتكُم دَوَاهِـــي أَيَّهُـــا النَّـــاسُ سَـــارِعُوا لانتِبَـــاهِ
أَيهُـــا النـــاسُ أَنـــتُمُ فِي رُقَـــاد
إِســـتَنِيرُوا بِـــالعلمِ فَـــالعلمُ نُـــورٌ إِنَّـــمَا بِالعُـــلُوم تُنـــفَـــى الشُّرُورُ
ضَـــجِرت مِن هَذَا السُّكُونِ القُبُورُ إِنـــفُضُوا عَنـــكُم الخُمُولَ وثُورُوا
أَنَا نَادَيـــتُ لـــو يُـــثِيرُ المُنَـــادِي

(الزهاوي، ١٩٨٣: ١٤٠)

إنّه قاس الشرقَ بالغرب وكانت غايته من هذه المقارنة، إيقاظَ الشعب ووعيه، كأنـــه يريدُ أن ينفخ روحاً جديدةً في جسم هذا الشعب المتعب، ويشعرهم بالحيرة التي غمـــرتهم تجاه رقّي الغرب، كما يقول:

أَيّـــهُا النَّـــاسُ إِنَّمَا النَّـــاسُ فِي ‌ ‌ الغَربِ جَنوا مِن رُقِّيهِم أَثْمَـــارَا
إِســـتَفَادُوا مِن الطَّـــبِيعَةِ حتَّى ‌ ‌ اِستَخدَمُوا كَهرَبَاءَ هَا وَالبُخَارَا
ثُـــمَّ أَنتُم مِنَ البَعِيـــدِ إِلَيـــهِم، ‌ ‌ أَيُّهَا النَّـــاسُ تَنظُـــرُونَ حَيَارَى

(المصدر نفسه: ٧٢)

وبعد إيقاظ الشعب من نوم الغفلة، يحثّهم على التّقدم ويُفزعهم من الهوان، ويقول لهم: تقدموا وسارعوا نحو التطور، لأنه كل شخص لايسير نحو التقدم ويتأخر، يتوجه إليه الهوان والخزي، قائلاً:

تقَدَّمْ وَسارِع فَالّـــذِي يَتَـــأَخَّرُ ‌ ‌ يُلَاقِي هَوَانـــاً مَوتُه مِنـــهُ أَيسَـــرُ
لَـــقَد أَبطَأَ الشَّـــعبُ الَّذِي يَتَعَثَّرُ ‌ ‌ وَأَســـرَعَ أَقوَامٌ وَ أَبطَأَ غَيرُهُـــمُ
وَأَبطَاؤُهُم مِن كَثرَةِ العَـــثَرَاتِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٣٦)

وحينما تعامى الناسُ عن نصائحه، يضجرُ ويتحدث عن الظـــروف الســـائدة في المجتمع ويخاطب نفسَه ويواسيها، كما يقول: قلتُ لقومي أفضل نصـــائح ولكـــن لم يسمعوا إليها، وأنا كنت أريد تقدمهم ولكن شتموني، ويشهد العلم والحق والقرطاس والقلم أني غيرُ كاذبهم في نصائحي، وإني في هذا الطّريق أصبتُ بأضرارٍ وأما القـــوم فانتفعوا، قائلاً:

نَصَحتُ لِلقَومِ فِي شِعرِي فَمَاسَمِعُوا ‌ ‌ كَأَنَّمَا القَومُ فِي آذَانِـــــهِم صَـــمَمُ
أَخلَصتُ نُصَحِي لَهُم أَرجُو تَقَدُّمَهُم ‌ ‌ فَكَانَ مِنهُم جَزَائِي أَنَّهُـــم شَـــتَمُوا
العِلمُ يَشهَدُ أَنِّـــي غَـــيرُ كَـــاذِبِهِم ‌ ‌ وَ الحَقُّ يَـــشهَدُ وَالقِرطَاسُ وَالقَلَـــمُ
أَبـــدَيتُـــهَا كَلماتٍ فِي نَصِـــيحَتِهِم ‌ ‌ أَضرَارُهَا لِي وَلَكِـــن نَفعُهَـــا لَهُـــمُ

(المصدر نفسه: ٢٢١)

هناك ميزة بارزة في أشعار الزهاوي، هي مسألة العزم والإرادة للوصول إلى الأهداف. إنّه اعتقد أنّ قوةَ العزم والإرادة هما قوتا حياة البشرية، لهذا عندما أراد الشعب أن يصل إلى اهدافه، فإنَّ هذه الإرادة هي سبيلهم. ولكنّها لاتَحدث بصورة تلقائية، بل هي مولودة الحبّ للحياة، من أجل ذلك حاول زيادة شغفهم بجماليات الحياة وناداهم: أنشطوا لأنَّ تقريرَ مصيرِكم يكون بأيديكم، وأنتم تقدرون على تغيير مصيركم، واطلبوا، واحذروا العداوةَ وسياسة التفريق، وقوموا بالصَّناعة، وَفقاً لقوله:

يَا أُمَّةَ الشَّرقِ أَنشِطِي وَ أَفِيقِي ... مِن طُولِ نَومٍ فِي الغَدَاةِ عَمِيقِ
يَا شَرقُ أهلك وَ الجَهَالَةُ ضُلَّةٌ ... لَا يَهتَدُونَ لِمَنهَجٍ مَطرُوقِ
يَا شَرقُ إنَّ النَّاسَ لَيسَ يَضُرُّهُم ... شَيءٌ كَمِثلِ سِيَاسَةِ التَّفرِيقِ
طَارُوا بِأَجنِحَةِ الصَّنَاعَةِ فَامتَطُوا ... ظَهرَ الرِّيَاحِ مَكَانَ ظَهرِ النُّوقِ

(المصدر نفسه: ٢٧٨)

كما يصرّح *القرآنُ الكريم* حول إرادة الحياة: «إِنَّ اللهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنفُسِهِم» (الرعد: ١١). ويعتقد الزهاوي أنّ رقّي العرب في حضارتهم، قد حدثَ بعد رقّي الأدب في جاهليتهم، قائلاً:

بَعدَ مَا إرتَقَى الأَدَبُ ... قَد تَرَقَّت العَرَبُ
إنَّهُ لِنَهضَتِهَا ... وَحدَهُ هُوَ السَّبَبُ
ثُمَّ بَعدَ أَن نَهَضُوا ... بُرهَةً قَد إنقَلَبُوا
قَد مَشَوا بِلَيلَتِهِم ... فَاعتَرَاهُمُ التَّعَبُ
يَومَ فِي الحُكُومَةِ لَم ... يَفعَلُوا كَمَا يَجِبُ

(المصدر نفسه: ٢٦٩)

ولكنّنا لانوافقه الرأي في أنّ السبب الأساس لنهضة العرب كان في رقّي الأدب عندهم في الجاهلية، بل نعتقد أنّ السبب الأساس في رقّيهم وحضارتهم يعود إلى الإسلام الذي أنقذهم مما كانوا فيه من جاهليةٍ في شتّى مجالات الحياة.

٦. الإهتمام بشأن المرأة في المجتمع

الزّهاوي من أشد الناس إهتماماً بشأن المرأة، الدعوة إلى تحرير المرأة كانت أسمى ما أبدعه الزهاوي في الميدان الإجتماعي، وتتلخص دعوة الزهاوي في مظاهر أربعة من حياة المرأة العراقية؛ الأول: الدعوة إلى السفور، الثاني: مكافحة تعدد الزوجات، الثالث: نقد طريقة الزّواج، الرابع: الدعوة إلى تعليمها ومشاركتها بالحياة العامَّة (ناجي، د.ت: **٢٤٩**). ولا تعني الدعوة إلى السّفور الدعوة إلى التبرّج، فالسفور آنذاك كان يعني رفع النّقاب عن الوجه وليس التبرّجَ المبتذل الذي يتناقض مع عفة المرأة وكرامتها.

إنّ الزهاوي يعتقد بسمّو منزلة المرأة، إذ يقول في تكريمها: «المرأة أول من حنت عليَّ عندما كنتُ ضعيفاً أحتاج إلى حنوٍ قوي يتعهدني ويدرأ عني مزاعم الحياة، عندما كنتُ طفلاً أرضع اللبان من ثدي الأم وأنامُ على ذراعها هادئ البال، والمرأة أول معلمٍ علّمني درس الكلام لأدخل معركة الحياة شاكي السّلاح مجهزاً، والمرأة دواء الشباب وجمال الطبيعة ونضارة الحياة وثوب الربيع القشيب وزهرة الأرجواني الباسم والشعر الذي يتغنّى به الرجل» (المصدر نفسه: **٣٥٥**) قائلاً:

إنَّ النِّساءَ رَبِيعٌ ... لَنَا وَنِعمَ الرَّبِيعُ
وَ إنَّهنَّ رِيَاحِينٌ ... زَاهِرَاتٌ تَضُوعُ
وَإنَّهُنَّ إذَا أَظْلَمَت ... لَيالٍ شُمُوعُ
وَإنَّهُنَّ إبتِسَامَاتٌ ... تَارَةً وَدُمُوعُ
إنَّ الرِّجَالَ جُذُوعٌ ... إنَّ النِّسَاءَ فُرُوعُ
حَدِيثُهُنَّ لَطِيفٌ ... وَ حُسنُهُنَّ بَدِيعُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣١٠)

كان الزهاوي يرى الناسَ في الشرق لايعترفون بشخصية المرأة، ولكن عندما يشاهدُ أنَّهم كيف يُضَيِّعُونَ حقوقها، ويعاملونها معاملة الحيوان والمتاع، ويُقبلون عليها لإرضاء شهواتهم، يعاني ويرى هذه الآفات من جهلهم، قائلاً:

النَّاسُ فِي الشَّرقِ ضَلُّوا   سَــبِيلَهُم وَ أَضَــلُّوا
وَ بِــالحَيَاةِ استَخَفُّوا   وَ بِــالحُقُوقِ أَخَلُّــوا
ظَنَّ النِّسَــاءَ رِجَــالٌ   صِــنفَاً أَذَاهُ يَحِــلُّ
وَ أَنَّهُــنَّ كَحَيَــوَان   لَيسَ يَهدِيــهِ عَقــلُ
وَ أَنَّهُــنَّ مَتَــاعٌ   لَهُم مِنَ النَّفسِ يَخلُو
وأَنَّهُــنَّ مَلَــذَّاتٌ   تُشــتَهَى وَ تُمَــلُّ
وَ كُلُّ ذلك مِنــهُم   إِذَا تَأمَّلــتَ جَهــلُ

(المصدر نفسه: ٣١١)

وإنّه يحارب هذه الآراءِ السائدة التي تنبع من جهل الناس، ويهتف بأنَّ المرأة ليست في مكانتها الأصلية في الأسرة والمجتمع، ويريدُ بأشعاره إبعادَ الناس عن هذه الإفكار وإلقــاءَ الضوء على مؤهلات المرأة الذاتية حتى يعترفَ الناس بشخصيتها، قائلاً:

لِلـــمَرأَةِ اليَـــومَ فِي   مَجــلِسِ القَضَاءِ مَــحَلٌّ
لِلـــمَرأَةِ اليَـــومَ فِي   البَــرلَمَــانِ عَقــدٌ وَ حَــلٌّ
لِلـــمَرأَةِ اليَـــومَ فِي   استِكشَافِ الحَقَائِقِ شُــغلُ
لِلـــمَرأَةِ اليَـــومَ فِي   تَحسِينِ الحَضَارَةِ فَــضلُ

(المصدر نفسه: ٣١٣)

ويرى الزهاوي أنّ تعليمَ المرأة هو أول ما يمهّد الطريقَ لِتَدَخُّلِها في شؤون المجتمع، ومن أجل ذلك دعا إلى تعليمها، كما كانَ معتقداً أنّ العلم غير مختصّ بالرجل لأنّ معطياته غير مختصّة به. فتعليم المرأة ليسَ أمراً غيرَ ممنوع فحسب، بل هو أمر مطلوب وراجح:

إِنَّــمَا المرأَةُ وَالمرءُ سَوَاءٌ فِي الجَــدَارَة   عَــلِّمُوا المرأَةَ فَالمرأَةُ عُنوَانُ الحَــضَارَة

(ناجي، د.ت: ١٦٤)

كما رُوي عن النبي (ص): «مَن كَانَت لَه إبنَةٌ فَأَدَّبَهَا وَأَحسَنَ أَدَبَها وَعَلَّمَهَا فَأَحسَــنَ تَعلِيمَهَا فَأَوسَعَ عَلَيهَا مِن نِعَمِ اللهِ التِي أَسبَغَ عَلَيهِ كَانَت لَه مَنَعــةً وســتراً مِــنَ النَّــارِ» (ري شهري، ١٣٨٤: ١/ ١٠٠).

كان الزهاوي يشنُّ حرباً شديدة على النقاب، ويرى فيه تحطيماً لنفس المرأة، وهـدماً لشخصيتها، وحداً من طموحاتها، وتعتيماً لمواهبها. وهو يعزو معظم التّخلف في الشـرق إلى جهل المرأة ونقابها، ويطالب بتحريرها وإطلاقها مـن سـجنها المـادي والمعنـوي (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤٢٤-٤٢٥). لأنَّه يرى المرأة صِنواً للرجل، من أجـل ذلـك هاجم النقابَ في العديد من قصائده، حيث يقول:

إسفِري فَالحجَابُ يَا إبنَةَ فَهر هوَ دَاءٌ في الاجتِمَاعِ وَخـيم
لَمَ يَقُل بالحِجَاب في شِـكلِه هذَا نبيّ وَ لاارتَضَـاهُ حَكِيم
هُوَ في الشَّرعِ وَالطَّبيعَةِ وَ الأَذ وَاق وَالعقلِ وَالضّمِيرِ ذَمِـيم

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٥٦)

و اعتقد الزهاوي أنّ ما يترتب على النّقاب من المضار لكثير: فالمرأة ذات النقاب تفقـد الثقة بالرجل فلايكبر عليها أن تخونَه، وأنَّ ذات النقاب إذا مشت إلى محل الريبة فلاتخشى أن يعرفها أحد في الطريق وأما المكشوفة فهي تخاف على شرفها وعلى سمعتـها لأنّ النـاظرين يعلمون أنها بنت فلانٍ أو أخت فلانٍ أو زوجة فلانٍ، وأنَّ النقاب يسيء ظن الغربيين بنـا، فإنهم يقولون لوكان المسلمون واثقين بعفة نسائهم لما ضغطوا عليهن هذا الضغط اللئيم، وأنَّ النقاب يراد للعفة والعفة لاتدوم بالضغط، وأنَّ النقاب منعٌ والإنسان لما كان حريصاً على ما مُنع كان مُقدِماً على هتكه بطريق غير مشروعٍ و ... (ناجي، د.ت: ٣٥٨-٣٥٩). قائلاً:

هَزَأُوا بالبَنَاتِ وَ الأُمَّهَات وَأَهَانُوا الأَزوَاجَ وَ الأَخَوَاتِ
هَكَذَا المُسلِمُون في كُلّ صَقعٍ حَجَبُوا لِلجَهَالَةِ المُسـلِمَاتِ
سَجَنُوهُنَّ في البُـيُوتِ فَشَلُوا نصف شَعبٍ يَهُمُّ بالحَرَكَاتِ
مَنَعُـوهُنَّ إن يُـرِينَ ضِـياءَ فَتَعَوَّدْنَ عِيشَـةَ الظُّلُمَـاتِ
دَفَنُوهُنَّ قَبلَ مَـوتٍ مُـرِيح في قُبُورٍ سُود مِنَ الحُجَـرَاتِ
في بُيُـوتٍ لِزَمَنِهَـا كَقُبُـور أَظلَمَت كَم سَكَبَنَ من عَبَرَاتِ
إن هَذَا الحِجَاب في كُلِّ أَرض ضَـرَرٌ لِلفِتيَـانِ وَ الفَتَيَـاتِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٠٩)

كما كان الزهاوي يعاني من الجور الذي فرض على المرأة، إنَّه إعتقدَ أنها مظلومة لأن عقدة الطلاق بيد الرجل يحلها وحده ولايدري لماذا يَجِبُ رضا المرأة في الإقتران ولايجب رضاها في الفراق، أي لماذا لا تستطيع المرأة أن تَطلَّقَ من الرجل حتى تنجوَ من شراسته، ولكن يستطيع الرجل أن يُطَلِّقَ المرأةَ، وقد قال تعالى: «وَلَهُنَّ مِثلُ الّذِي عَلَيهِنَّ» (النساء: ٣٤)؛ لماذا لا يكون لها هذا الطلاق مثلما هو عليها لتعمَّ المساواةُ وتسود العدالةُ كما هو مدلول الآية؟! (ناجي، د.ت: ٣٥٧).

وملخّص قول الزهاوي في المرأة:

لَولا النِّسَاءُ لَمَا بانَ لِلحضَارَةِ شَكلُ   عَلَى الشُّعُوبِ بِمَرقَى نِسَائِهَا يُستَدَلُّ

(المصدر نفسه: ١٦٥)

هكذا كان الزهاوي في طليعة الشعراء الذين دافَعوا عن المرأة، ودعوها إلى تحطيم نير العبودية، والثورة على الجمود التقليدي، وقد أحدث صوتُه التحرري ضجّة كبرى في مجتمعٍ إستنقعت فيه العقول والنفوس، ولقي من جرّاء ذلك مقاومة وإنتقاداً، ولكنه لمينثنِ عن عزمه، و لميرتدّ عن كفاحِه (الفاخوري، ١٩٨٦: ٢/ ٤٢٥). كان الزهاوي ينظر إلى الإعتراف بشخصية المرأة بصفته ميزة رئيسة لبناء مدينته الفاضلة، لأنّه يعتقد كل أبناء البشر ينشأوون بين أحضان الأم، والإهتمام بشأن المرأة يؤدي إلى ظهور الآثار التربويّة في المجتمع وهذه الميزة هي التي يكون لها دورٌ اساسي لوضع مجتمعٍ مثاليٍ.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

٧. نتيجة

جميل صدقي الزهاوي كان شاعراً فلسفياً. حاول كثيراً لإصلاح الأحوال الفكرية والتصرفات الاجتماعية عند الناس لترويض الفكر والدفاع عن الإنسان الذي كان مثالاً من الله، ولكن لميسانده الشعب وإحتجّوا عليه في بعض الأحيان وصار متعب النفس، فبنى مدينةً فاضلةً لنفسه وترك واقع الحياة وعاش في مدينته الخيالية، وأقنع نفسَه بأن يعيش في مدينته الفاضلة بعد محاولاتٍ كثيرةٍ في إصلاح التصرفات الإجتماعية وشعوره بعدم

جدواها، فوضع ميزات رئيسة لمدينته وهي: العلم والتّعلم، واستقلال الوطن، وحريَّة التّعبير، والعدالة، والحثّ على التّقدم وإرادة الحياة، والاهتمام بشأن المرأة في المجتمع.

فالتعلم من المقوّمات الأساسية في أدب الزّهاوي، وقد بني عليه أدبه، كما اعتقد أنّ الحياة الاجتماعيّة لاتزدهر إلا في ظلّ العلم لهذا غلبت على شعره نزعة التفكير العلمي، واستقلال الوطن هو تحرير البلاد من سيطرة المستعمرين وقد دعا إلى الوعي للحصول على الاستقلال والكرامة والتطور والتحرّر من نير الظلم والاستبداد وكلّها من خصائص المدينة الزهاوية الفاضلة، وحرية التعبير هي التي قنط الزهاوي من وجودها في المجتمع وفتّشَ عنها في مدينته الخياليَّة، والعدالة التي جنَّدَ الزهاوي شعره لها وأثار الناسَ على الحكام المغتصبين للوصول إليها بجرأة وصراحة هي أيضاً من سمات مدينته الفاضلة، أما فيما يختص بالحثّ على التقدم وإرادة الحياة فإنَّ الزهاوي حاول إحياءَ نفوس الشعب الخائبة، والفضيلة الإنسانية والعلم بأسلوبٍ حديثٍ، وأخيراً تناول الإهتمامَ بشأن المرأة والدعوة إلى تحريرها لأنَّه رآها تعيش في ظلمة الجهل وهو يريد الإعتراف بشخصيتها في المجتمع. وسعى أن يُصَوِّرَ هذه الميزات بشكلٍ رائعٍ حتى يرغب الناس فيها. وأما حول كيفية الحصول على هذه الميزات؛ فإنّ الزهاوي يشيرُ في أشعاره بشكلٍ مباشرٍ إلى أَنَّ مصيرَ الشعب بأيديهم وأوصى شعبَه، أنَّ قوة العزم والإرادة هما قوتا حياة البشرية، لهذا فإن الشّعب إذا أراد أن يحقّقَ طموحاته، فإنّ هذه الإرادة سوف تمده بالقوة اللازمة، وقد صرّح بذلك. كما ألقى *القرآن الكريم* الضوءَ على هذا بشكلٍ واضحٍ، حيث يقول سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنفُسِهِم» (الرعد: ١١).

الهامش

١. هو أبو نصر محمد الفارابي الفيلسوف الإسلامي الذي طبّقتْ شهرتُه الآفاقَ.

المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة (١٣٨٤ ه). مترجم: محمد دشتي، قم: منشورات أبرار.

إبن منظور (١٩٩٨ م). *لسان العرب*، نسقه و وضع فهارسه: على سيري، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

أدهم، اسماعيل احمد (١٩٣٧ م). *الزهاوي الشاعر*، مطبعة التعاون بالإسكندرية.

برنيري ماريا لويزا (١٩٩٦ م). *المدينة الفاضلة عبر التاريخ*، ترجمة: عطيات أبوالأسود، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، منشورات عالم المعرفة (سلسلة كتب وطنية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ـــ كويت).

الجندي، أنور (١٩٦٠ م). *الزهاوي شاعر الحرية*، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

الدسوقي، عمر (٢٠٠٣ م). *في الأدب الحديث*، ج ٢، دار الفكر.

محمدي ري شهري، محمد (١٣٨٤ ه). *ميزان الحكمة*، ج ١، مترجم: حميدرضا شيخي، قم: دار الحديث.

الزهاوي، جميل صدقي (١٣٤٣ ق/ ١٩٢٤ م). ديوان الزهاوي، مصر: المطبعة العربية.

الزهاوي، جميل صدقي (١٩٨٣ م). *ديوان النهضة*، بيروت: دار العلم للملايين.

الفاخوري، حنا (١٩٨٦ م). *الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب الحديث*، ج ٢، بيروت: دار الجيل.

الفاخوري، حنا (١٣٨٥ هـ). *تاريخ الأدب العربي*، طهران: توس.

الكليني الرازي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق (د.ت). *أصول الكافي*، ج ١، ترجمه و شرحه: جواد مصطفوي، قم: منشورات علميه اسلاميه.

مطر، أميرة حلمي (١٩٩٤ م). *جمهوريّة افلاطون*، مكتبة الأسرة «تراث الإنسانية».

مهنّا، عبد الله علي و خريس، علي نعيم (١٤١٠ ه/ ١٩٩٠ م). *مشاهير الشعراء والأدباء*، بيروت: دار الكتب العلمية.

ناجي، هلال (د.ت). *الزهاوي وديوانه المفقود*، القاهرة: دار العرب للبستاني.

الوافي، علي عبدالواحد (د.ت). *المدينة الفاضلة للفارابي*، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

مور، توماس (١٣٧١ هـ.ش). *آرمان‌شهر*، ترجمه: داريوش آشوري و نادر افشار نادري، تهران: خوارزمي.

پرتال جامع علوم انسانی